ردمد 38077 ـ 1858

مجلة الشريعة والقانون

تصدر عن كلية الشريعة والقانون بجامعة افريقيا العالمية ـ السودان
نصف سنوية ـ علمية ـ محكمة

بحوث العدد الرابع والثلاثون

- أركان جريمة الاتجار بالبشر في قانون مكافحة الاتجار بالبشر لسنة 2014م
  د. إيناس عبد الله محمد حمد
- الإستئناف في قانون الإجراءات الجنائية لسنة 1991م
  د . أحمد محمد ساتي
- مفهوم وأنواع الحدود الدولية وكيفية تعيينها وتخطيطها في القانون الدولي العام
  د. عمر أبوعبيدة الأمين عبد الله
- تعدد الزوجات (حقائق ووقائع)
  د. أمين إسماعيل ساغاغي
- تنفيذ حكم التحكيم الأجنبي في المحاكم الوطنية
  أ. مشاعر عبد الحميد محمد شاذلي
- الحجز البحري للسفينة التجارية
  د . عثمان أحمد عثمان علوب
- دور القضاء في التحكيم
  د. عثمان النور عثمان الحاج
- من فقهيات مراحل الاستضعاف – مراعاة المصالح نموذجاً
  د. قسم الله عبد الغفار قسم الله
- دلالة النصوص على التعايش الأخلاقي في القرآن والسنة وأثرها على استقرار المجتمع
  د. محاسن حسن الفضل

السنة السادسة عشر ـ العدد الرابع و الثلاثون ذو الحجة 1440هـ ـ أغسطس 2019م

من فقهيات مراحل الاستضعاف
مراعاة المصالح نموذجاً

د. قسم الله عبد الغفار قسم الله (*)

المقدمة:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد،،،

فالناظر في تاريخ الأمة الإسلامية يجدها مرت بمراحل من القوة والضعف، كان للأمة في كل مرحلة منها فقه ساعدها على النهوض من حالات الضعف إلى أن وصلت إلى مرحلة التمكين ، فالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام من بعده، كان لهم فقه في المرحلة المكية ساعدهم على السعي نحو التمكين، وكذلك العلماء من بعدهم في مراحل مختلفة من تاريخ الأمة.

أهمية البحث

إن موضوع فقهيات مراحل الاستضعاف، ومراعاة المصالح العامة في الشريعة الاسلامية له أهمية بالغة إذ يحتاج لبحث تحليلي عميق؛ وذلك لأهميته في حياتنا المعاصرة حيث إن الأمة تمر بفترة عصيبة من تاريخها، فهي في أشد الحاجة لفهم فقهيات مراحل الاستضعاف، وما هي أسبابه حتى ترسم أهدافها، وتسعى لتحقيق أمالها ، وفق سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والمجتمعات والدول .

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في أن الأمة تمر بفترة عصيبة في حياتها تحتاج فيها إلى فقه عميق يجمع بين معرفة مراحل استضعافها، والفقه الذي يناسبه ، مما دعا الباحث للنظر في الجمع بين مراعاة المصالح في الشريعة الإسلامية، وفقهيات مراحل الاستضعاف.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى أن:

1- يسهم في معالجة قضايا الأمة، والخروج بحلول عملية تربط بين الفقه والواقع.

(*) أستاذ مساعد بكلية الشريعة والقانون، رئيس قسم الشريعة، جامعة إفريقيا العالمية، السودان – الخرطوم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- يجمع بين فقهيات مراحل الاستضعاف ومراعاة المصلحة في الشريعة الإسلامية.
3- يربط الأمة بمرحلة مهمة من تاريخ الدعوة، وهي المرحلة المكية، ومعرفة الفقهيات التي صاحبت تلك المرحلة.
4- يبث روح الأمل في الأمة الإسلامية لمحاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

أسئلة البحث:

يحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:
1- ما مفهوم فقهيات مراحل الاستضعاف، وما مراحله.
2- ما المعنى العام للفقه في الشريعة.
3- ما المراد بالمصلحة في الشريعة الإسلامية.
4- ما الفرق بين الضعف والاستضعاف.
5- ما الأحكام التي تناسب مراحل الاستضعاف.

منهج البحث:

المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، والتزمت به قدر الإمكان فيما يأتي:
1- الرجوع إلى المصادر الأصلية ما أمكن ذلك.
2- الحرص على الأمانة العلمية في عزو الأقوال إلى قائليها.
3- الحرص على تدعيم البحث بالنصوص الشرعية من الكتاب، والسنة، وأقوال العلماء.
4- بيان مواضع الآيات القرآنية الكريمة في المصحف الشريف؛ وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية.
5- الترجمة للأعلام الوارد ذكرهم في البحث.
6- إعداد فهارس للمصادر والمراجع.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى ثلاثة مباحث، وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: مفهوم فقه الاستضعاف

ويحتوي على مطلبين :

المطلب الأول: تعريف الفقه لغة

المطلب الثاني :التدرج التاريخي لكلمة الفقه.

المبحث الثاني مفهوم الاستضعاف

ويحتوي على

المطلب الأول: الفرق بين الضعف والاستضعاف:

المطلب الثاني: أنواع الضعف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلب الثالث: عصور الاستضعاف

المبحث الثالث :مراعاة المصالح العامة للشريعة الإسلامية

ويحتوي على

المطلب الأول: المصلحة في الشريعة الإسلامية

المطلب الثاني: شروط المصالح وأقسامها

الخاتمة وتتضمن أهم النتائج، والتوصيات .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الأول

مفهوم فقه الاستضعاف

المطلب الأول: تعريف الفقه لغة:

أولاً: التعريف اللغوي:

عندما تطلق كلمة الفقه يتبادر للذهن ذلك العلم المختص بفروع الشريعة وجزئياتها، وإن كان هذا جزءاً من التعريف، إلا أن كلمة الفقه تدل على معانٍ واسعة جاءت في القرآن الكريم، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الفقه بمعنى الفهم الدقيق، قال تعالى:.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1] ويأتي في اللغة بمعنى: العلم والفهم، "وذهب إلى كون الفقه هو العلم إمام الحرمين[2] في التلخيص، والماوردي[3]، وقيل هو: العلم بالشيء والفهم له"[4].

ومنه ما جاء في الحديث الشريف: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[5].

وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه على سائر أنواع العلم كما غلب النجم على الثريا[6].

---

[1]- سورة التوبة، الآية 122.

[2]- إمام الحرمين هو: ضياء الدين أبو المعالي عبد الملك بن شيخ أبي أحمد الجويني المعروف بإمام الحرمين إمام الأئمة في زمانه وأعجوبة عصره، ولد سنة 419هـ وقرأ الفقه على والده، والأصول على أبي القاسم الإسكافي، أقعده الأئمة مكان والده للتدريس بعد وفاته. عرف بإمام الحرمين لأنه كان إماماً بمكة حين مجاورته، توفي سنة 478هـ. انظر: طبقات الفقهاء، ص238) لأبي إسحاق الشيرازي، متوفى 476هـ تصحيح ومراجعة الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت – لبنان، دون تاريخ ولا طبعة.

والأعلام (160/4) لخير الدين الزركلي – دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1984م.

[3]- الماوردي هو: قاضي القضاة أبو الحسن بن حبيب الماوردي البصري، تفقه على أبي القاسم القشيري، ثم ارتحل إلى الشيخ أبي حامد الاسفراتيني، ودرس ببصرة وبغدد سنين كثيرة، وله مصنفات كثيرة في أنواع العلوم، مات سنة 450هـ.

انظر: طبقات الفقهاء 230، وسير أعلام النبلاء (14/18). الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط9، 1414هـ-1993م، الأعلام (321/4).

[4]- البحر المحيط في أصول الفقه (13/1) للإمام بدر الدين بن عبد الله الزركشي، تحقيق د. محمد بن معد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م.

[5]- رواه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً، حديث رقم (71) (39/1) صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، 1410هـ-1990م.

[6]- لسان العرب، (522/3) لابن منظور،، مكتبة الرشد، الرياض، ط3، 1414هـ-1994م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقيل هو التوسل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم[1]، والمراد بالعلم والفهم شيءٌ واحدٌ؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[2] والظاهر أنهما بمعنى واحد لكن المراد –والله أعلم- الفهم.

قال ابن بطة[3]: "الفقه في اللسان الفصيح معناه الفهم"[4]. وقيل: "الفهم لا يكون إلا للأشياء الدقيقة فمعرفة أن السماء فوقنا والأرض تحتنا وأن الواحد نصف الاثنين كل ذلك لا يسمى فقهاً. قال القرافي[5]: "وهذا أولى، وهو ما ذهب إليه الإمام الشيرازي[6]" من أن الفقه هو إدراك الأشياء الخفية".[7]

إذاً الفقه هو:. العلم والفهم لشيء دقيق من علم شاهد للتوسل به إلى علم غائب.

ومن ذلك يمكن أن نطلق كلمة الفقه على كل علم من العلوم التي تبين معنىً خفي بدلالة العلم الشاهد عليه كفقه الواقع أي فهمه بما هو مشاهد من حال وعرف وعلم.

---

[1]- البحر المحيط في أصول الفقه (13/1).

[2]- فتح الباري: (213/1) كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم علمه الكتاب"، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1419هـ-1998م، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

[3]- ابن بطة هو: عبد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري المعروف بن بطة: عالم بالحديث، فقيه من كبار الحنابلة، ولد سنة 304 هـ بعكبرا، رحل لمكة وللثغور والبصرة، وغيرها في طلب العلم، ثم لزم بيته أربعين سنة، صنف فيها كتبه وهي تزيد على مائة منها الشرح الكبير والديانة على أصول السنة والديانة توفي سنة 387هـ. انظر الإعلام (196/4).

[4]- إبطال الحيل، ص/53، للإمام أبي عبد الله بن محمد العكبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ-1996م.

[5]- القرافي هو: أحمد بن إدريس عبد الرحمن أبو العباس من علماء المالكية : نسبته إلى قبيلة من برابرة المغرب، وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة، له مؤلفات جليلة في الفقه والأصول منها التنقيح في أصول الفقه والذخيرة والفروق والقواعد. كان من البارعين في عمل الآلات الفلكية، توفي سنة 684هـ.

انظر: شجرة النور الزكية: ص/188، في طبقات المالكية الشيخ: محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون رقم وتاريخ الطبعة.

الأعلام (94/1).

[6]- الشيرازي هو: أبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي بن يوسف جمال الدين ولد سنة 393هـ، ورحل في طلب العلم إلى البصرة وبغداد سمع الحديث من أبي بكر البرقاني قال عنه الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق لو رآه الشافعي لتجمل به، له العديد من المصنفات منها المهذب في الفروع، توفي سنة 476هـ.

طبقات الفقهاء ص/5ن الأعلام (51/1).

[7]- انظر: نثر الورود على مرافئ السعود، الشيخ: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي صاحب أضواء البيان، تحقيق: محمد ولد سيدي حبيبن دار النشر والتوزيعع، السعودية جدة، الطبعة الثانية، 1420هـ-1999م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالفقيه إذاً يطلق على العالم بفروع الشريعة، والعالم بالعقائد، والعالم بالتفسير، والحديث، والعالم بالواقع، فيكون المقصود بالفقهاء هم العلماء في أمور الدين الإسلامي جملة.

وذلك لأن كلمة الفقه تعني العلم بأحكام الدين على وجه العموم والشمول، غير أن مصطلح الفقه قد أخذ صفة الخصوصية في العصور المتقدمة لعلم الفروع، وسمي العلماء به في ذلك العصر بالفقهاء إلا أن عندي استدراكاً على من يقول ذلك، فالفقهاء في العصور الأولى، لم يكونوا محصورين في علم الفروع وجزئياته فحسب، بل كانوا علماء بالحديث، والتفسير، والتاريخ، والناسخ، والمنسوخ، وبعلوم اللغة، وغيرها، أضف إلى ذلك علمهم التام بالواقع؛ فحق لنا أن نطلق عليهم فقهاء بالمعنى الواسع لكلمة الفقه فمالك[1] رحمه الله تعالى مثلاً كان له علمٌ واسعٌ بالحديث والرجال؛ فقد جمع في الموطأ العلم بالحديث، والفقه في الدين، والدراية بالرجال، والشافعي[2] رحمه الله تعالى: له علم بالحديث، والأصول، فهو أول من ألف في أصول الفقه، وله علم واسع في كثير من العلوم، ومن ذلك علمه بالواقع؛ فقد كان له فقه في العراق، وآخر في مصر؛ وذلك لاختلاف الأحوال، والأمكنة، والأزمان، والأعراف؛ مما يدل على فقه في الشريعة، وعلم بالواقع.

وأحمد[3] رحمه الله له قدم السبق في المسانيد، مع العلم بالفقه؛ فلم يحصر نفسه في فروع الشريعة فحسب، بل كان له علم غزير في الحديث، والفقه، واللغة، وشمل كل ذلك بالزهد، والتقوى، والصبر، والورع.

وإمام الأئمة أبو حنيفة النعمان[4]، رحمه الله، له اليد الطولى في علم الاستنباط، وقوة المنطق؛ فالعلماء عيال عليه في علم الفقه.

---

[1]- مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي اختلف في مولده وأشهر ما قيل فيه سنة 93هـ كان محدثاً فقيهاً، صاحب هيبة ووقار، صاحب المذهب المشهور، جلس للفتوى وهو ابن 17 سنة، شهد له كثير من السلف بالعلم والفضل، توفي رحمه الله سنة 179هـ. انظر: ترتيب المدارك، (102/1) للقاضي عياض، تحقيق أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ أو رقم الطبعة، وطبقات الفقهاء للشيرازي، ص53.

[2]- الإمام الشافعي، محمد بن إدريس بن عباس الشافعي المطلبي ولد بالشام سنة 150هـ وقيل: باليمن، رحل إلى مكة وسكن بها، انتقل إلى الحجاز والعراق وغيرها ثم قدم مصر واستوطنها، برع في العلم بجميع أنواعه شهد له العلماء بالثناء والفضل ، توفي رحمه الله سنة 204هـ. انظر: ترتيب المدارك (38/1) وفيات الاعيان (37/2) وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عياش، دار صادرن بيروت.

[3]- هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أحد الأئمة ، ولد ببغداد سنة 146هـ إمام زاهد عابد فقيه محدث، امتحن في محنة خلق القرآن فصبر، له عدد من المؤلفات أهمها مسند الإمام أحمد، توفي سنة 241هـ.

[4]- الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التميمي الكوفي مولى بني تيم الله بن ثعلبة ولد سنة 58هـ، في حياة صغار الصحابة ورآى أنس بن مالك، عالم فقيه، توفي سنة 159هـ. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (390/6) وطبقات الفقهاء، ص87.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذاً فهم فقهاء بالمعنى الواسع لكلمة الفقه، ويقال "فقه بالضم إذا صار الفقه له سجية، وفقه بالفتح إذا سبق غيره للفهم، وفقه بالكسر إذا فهم".[1]

فإن منشأ التباس العلوم تحريف الأسماء المحمودة لها، وتبديلها ونقلها إلى معان غير ما أراده السلف الصالح، والقرن الأول منها، ومن هذه العلوم علم الفقه.

فالفقه قد تصرفوا فيه "بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعسفاً فيها، وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدل عليه قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ چ[2].

وما يحصل به التخويف والإنذار هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق والسلم والإجارة...

وقال الحسن البصري[3] رحمه الله: معرفاً الفقيه: "إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم"[4].

والفقه وإن كان متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، وفرعيات المسائل بطريق العموم والشمول، فلا يقتصر عليها فقط فهو شامل في المعنى لعلمي الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[5].

---

[1]- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة ا لمنار، بدون طبعة ولا تاريخ، ص509.

[2]- سورة التوبة، الآية 122.

[3]- الحسن البصري هو: الحسن بن يسار البصري ولد في المدينة وسكن البصرة كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم، قال الغزالي كان كلامه أشبه بكلام الأنبياء وأتبعهم هدياً إلى الصحابة، ولد سنة 21هـ كان سيد التابعين في زمانه، عظيم القدر، توفي سنة 110هـ. انظر: طبقات الفقهاء (9/1) والأعلام (226/2).

[4]- انظر إحياء علوم الدين (45،44/1)، للإمام أبي حمد محمد بن محمد الغزالي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م، بدون رقم الطبعة.

[5]- سورة التوبة، الآية 122.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ففي هذه الآية دليل على شمول معنى الفقه، كما فيها دليل على فضيلة العلم الشرعي وخصوصاً الفقه في الدين.[1]

ثانياً: الفقه اصطلاحاً:

اختلفت آراء علماء الأصول في معنى كلمة الفقه اصطلاحاً.

فقيل: هو التصديق بأعمال المكلفين التي تقصد لا للاعتقاد، وقيل هو معرفة النفس ما لها وما عليها عملاً.

وقيل: اعتقاد الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية.

وقيل هو: جملة من العلوم يعلم باضطرار أنها من الدين[2] إلا أنه قد وردت اعتراضات على هذه التعريفات من عدة وجوه ليس هذا مجال بحثها.

والراجح:

من هذه التعريفات ما ذهب إليه جمع من علماء الأصول.[3]

أن الفقه هو: "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية[4].

وقيل: هو : "العلم بجملة من الأحكام الشرعية فلا يشترط العلم بجميع الأحكام الشرعية لصحة إطلاق كلمة الفقه، فالعلم بجملة منها يسمى فقهاً[5].

فالفقه لا يطلق اصطلاحاً إلا على جملة من الأحكام الشرعية المستنبطة من الأدلة التفصيلية، على أن تكون هذه الأحكام عملية، أي متعلقة بالعبادات والمعاملات فسائر الأحكام المتعلقة بالأخلاق والعقائد لا تدخل في معنى الفقه الاصطلاحي.

المطلب الثاني :التدرج التاريخي لكلمة الفقه

يعتبر العصر النبوي أهم العصور الفقهية على الإطلاق، لان الوحي كان ينزل في هذا العصر، والوحي –سواء كان قرآناً أو سنة- هو أساس الفقه في جميع

---

[1]- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص242 لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.

[2]- انظر: إرشاد الفحول، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ولا رقم للطبعة، ص3.

[3]- منهم إمام الحرمين في التلخيص والغزالي في المستصفى وابن قدامة في روضة الناظر وابن الحاجب، والسبكي في رفع الحجاب، والزركشي في البحر المحيط وغيرهم.

[4]- البحر المحيط (15/1) إرشاد الفحول ص3/ أصول الفقه الإسلامي، د. حسن محمد مقبول الأهدل.، مكتبة الجيل، صنعاء، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991م، ص10.

[5]- انظر: الوجيز في أصول الفقه، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، 1417هـ-1997م، ص8.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عصوره في الماضي، والحاضر، والمستقبل، وقد وقع الاجتهاد في ا لعصر النبوي لكنه لم يكن مصدراً للتشريع، ومن ذلك إذنه صلى الله عليه وسلم لكثير من الصحابة في الاجتهاد، أو إقراره لاجتهاد نفر من ا لصحابة، كإقراره لمعاذ بن جبل رضي الله عنه[1] عندما بعثه قاضياً على اليمن، وكإقراره صلى الله عليه وسلم للطائفتين على ما فعلتا في واقعة بني قريظة.[2]

كما كان الاجتهاد والنظر واقعاً في عصر الخلفاء الراشدين، وقد خلفوا فقهاً جماً كثيراً، ولم يشع في ذلك العصر إطلاق اسم الفقهاء عليهم، إنما كانت هذه الكلمة ترد في توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم: كحديث: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين".

وحديث: "نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلّغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه".[3]

ومن هذه الأحاديث نعرف أن كلمة الفقه كانت تدل على العلم بأحكام الدين على وجه العموم والشمول، سواء كان فقهاً في العقيدة، أو الحديث، أو التفسير، أو اللغة ومعانيها، أو الفتيا في العبادات والمعاملات، فيكون المقصود بالفقهاء: العلماء في أمور الدين الإسلامي جملة، ولم تظهر كلمة الفقه بمعناها المعروف، وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية إلا في عصر التابعين ومن بعدهم، واشتهر من اشتغل بهذا الجانب بالفقهاء مثل الإمام أحمد والإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أبي حنيفة والإمام الأوزاعي[4] وغيرهم من علماء الأمة ولم ينتشر بين الأمة إلا فقه المذاهب الأربعة التي صارت لها مدارس تعمل على نشرها؛ ولذلك فأهل السنة عامة يتبعونها، بينما اندرس بعض المذهب كمذهب الأوزاعي، والمذهب الظاهري وغيرهما.

نخلص من هذا الحديث إلى أن كلمة الفقه بمعناها الاصطلاحي لم تكن معروفة في العصر الأول، بل أخذت في التدرج إلى أن صارت على هذا النحو.

---

[1]- معاذ بن جبل بن أوس الغمام، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني البدري شهد العقبة، ممن جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه سلم وهو أعلم الأئمة بالحلال والحرام، توفي سنة 17هـ. انظر سير أعلام النبلاء (443/1) وطبقات الفقهاء ، ص26.

[2]- انظر إعلام الموقعين، لابن القيم (81/1).

[3]- انظر صحيح الترمذي – مع شرحه عارضة الأحوذي (124/10)، حديث رقم [3657]، كتاب العلم، باب/ ما جاء في الحث على السماع، للإمام ابن العربي المالكي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ-1990م.

[4]- الأوزاعي هو: عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي أبو عمرو الفقيه، ثقة جليل: مات سنة 157هـ، روى له أصحاب الكتب الستة. انظر: تقريب التهذيب للإمام الحافظ: أحمد بن علي بن حجر (393/1)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ-1997م. والأعلام (320/3).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني
مفهوم الاستضعاف

المطلب الأول: الفرق بين الضعف والاستضعاف:

مما لا شك فيه أن هناك فرقاً بين الضعف والاستضعاف، والمتتبع لآيات القرآن في هذا السياق يجد أن جميع معاني الضعف قد جاءت في القرآن، فمرة يجيء الضعف ومرة يجيء الاستضعاف، وأخرى الوهن، وكلها قد يعبر بها عن معنى واحد أو قد يختلف المعنى بحسب السياق، ويمكن أن نجمل ذلك. فيما يلي: قد كان يأتي القرآن بهذه المعاني في سياق الامتنان على العباد والرحمة بهم، ومن ذلك قوله تعالى﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[2].

وقد يأتي بها في سياق المدح والثناء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾[3].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾[4].

وتارةً يأتي في سياق الذم والتشنيع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[5].

وفي كثير من الآيات تأتي هذه الألفاظ مجردة عن صفات المدح أو الذم أو الامتنان.

---

[1]- سورة النساء، الآية: 28.

[2]- سورة الأنفال، الآية: 26.

[3]- سورة الأعراف، الآية: 75.

[4]- سورة النساء، الآية: 75.

[5]- سورة النساء، الآية: 97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحتى يتسنى لنا معرفة الفرق بين الضعف والاستضعاف يجب علينا معرفة المعاني اللغوية لتلك الألفاظ.

أولاً: تعريف الضعف لغة:

الضعف لغةً: "الضعف والضُّعف: خلاف القوة وقيل الضُّعف بالضم: في الجسم، والضَّعف بالفتح في الرأي والعقل.

وقيل هما معاً جائزان في كل وجه.. وأنشد:

ومن يلق خيراً يغمز الدهر عظمه على ضَعفٍ من حاله وفتور

وضِعْفُ الشيء بالكسر: مثله وضعفاه: مثلاه أو الضِعف المثل إلى ما زاد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1].

وتأتي كلمة الضعف كصفة لكل من المرأة واليتيم والصبي والمملوك والمجنون والشيخ العجوز، وقد وصفهم القرآن بهذه الصفة.

فمادة ضعف كما رأينا دلت على معانٍ مختلفة، منها: الضعف الذي هو ضد القوة، وهذا يكون في الجسم، والرأي، والعقل، أو معنى الزيادة (ضِعْف).

ومن خلال الجمع بين هذه المعاني نرى أن الضعف عبارة عن مرحلة تقبل الزيادة والنمو، وهي النقطة الأولى للبداية والانطلاق، التي تقود إلى مراحل القوة.

فالجنين مثلاً أول ما يمر به من المراحل هو هذه المرحلة؛ فيكون ضعيفاً في كل شيء – في جسمه وعقله- لكنه كذلك قابل للزيادة فما يلبث أن ينشأ ويترعرع ويقوى عوده حتى يصل إلى قمة التكامل والقوة.[2]

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[3].

وهذا التدرج سنة ثابتة في كون الله الفسيح في نباته وحيوانه وإنسانه.

وهكذا سنة الله في الرسالات، والدعوات، والأمم، والمجتمعات، والممالك، والحضارات- تبدأ هذه البداية، ثم تأخذ في النهوض حتى تصل قمة القوة والرفعة.

ولو تأملنا سيرة الأنبياء والرسل –عليهم الصلاة والسلام- لوجدنا أن دعوتهم تبدأ من مراحل الضعف في بداية الأمر، فتكون في ذواتهم، ثم محيطهم الأسري، ثم محيط القبيلة، ويكون الناس في هذه المرحلة بين معاندٍ للدعوة ومستجيب لها.

---

[1]- سورة الروم، الآية: 54.

[2]- انظر:لسان العرب (9-203-204)، حرف الفاء – فصل الضاد المعجمة.

[3]- سورة الأحزاب، الآية: 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونريد أن نخلص من هذا الكلام إلى أن الضعف ليس صفة لازمة، أو مرحلة ثابتة للإنسان، أو للأمم أو الدعوات لا يمكن أن ينفك عنها، بل هي مرحلة قد تمر بالإنسان والدعوات والأمم والمجتمعات والممالك والحضارات، يكون منها الانطلاق والتحرر "وإن نهضات الأمم جميعاً إنما بدأت على حال من الضعف يخيل للناظر إليها أن وصولها إلى ما تبغي ضرباً من المحال، ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة القليلة الوسائل إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح"[1].

ثانياً: تعريف الاستضعاف لغةً:

الاستضعاف لغةً: قال ابن الأثير[2]: يقال تضعفه واستضعفه بمعنى الذي يتضعفه الناس، ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر، ورثاثة الحال، وفي حديث عمر[3]رضي الله عنه: غلبني أهل الكوفة استعمل عليهم المؤمن فيضعف، واستعمل عليهم القوي فيفجر.[4]

(واستضعفه: عده ضعيفاً][5] وهو ليس كذلك، فقد يكون قوي العزم، قوي الإيمان، قوي الهمة، لكنه فقيرٌ أو قليل النفر لا يسمع لقوله. ومن هذا قول هارون لموسى عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6] فلم يكن هارون عليه السلام في يوم من الأيام ضعيفاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

[1]- مجموعة الرسائل ص/53 للإمام حسن البنا، دار النشر والتزيع الإسلامية، القاهرة، طبعة 1420هـ-1992م، بدون رقم.

[2]- الشيخ/ الإمام العلامة المحدث الأديب، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني بن الشيخ: الأثير أبي الكرم، مصنف التاريخ: الكبير الملقب بالكامل، ومصنف كتاب معرفة الصحابة، توفي سنة 630هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (353/22)، والأعلام (331/4).

[3]- عمر بن الخطاب بن نفيل القرضي العدوي أبو حفص، ثاني الخلفاء الراشدين أول من لقب بأمير المؤمنين صاحب الفتوحات، الإمام العادل الزاهد رضي الله عنه، استشهد سنة 23هـ، طبقات الفقهاء، ص19، شذرات الذهب في أخبار مذهب، (101/1) لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ولا رقم للطبعة. والأعلام (45/5).

[4]- لسان العرب (204/9)، حرف الفاء، فصل الضاد.

[5]- القاموس المحيط، ص756، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ-2001م.

[6]- سورة الأعراف، الآية: 150.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية أمرهم عدهم الكفار ضعفاء وهم ليسوا كذلك، بل كانوا في قوة إيمانهم أعتى من الجبال الراسيات، ومع ذلك أثبت الله لهم صفة الاستضعاف في تلك المرحلة فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1].

ورغم الحرب الضروس التي كانت تدار عليهم لم تلن لهم قناة ولم تضعف لهم همة. فقد: "فشلت قريش في صد المستضعفين عن هذه الدعوة التي احتضنوها بقلوبهم وعقلوهم ونشطوا لها بعدما أعدوا النفس للتضحية في سبيلها"[2].

وقد امتدحهم الله بأنهم كانوا يرفضون الاستذلال، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾[3] أي كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا. قال تعالى: ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له: ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزاً وذلاً بل هذا مما يذم به الرجل، والممدوح العفو مع القدرة والقيام لما يجب من نصر الحق لا مع إهمال حق الله وحق العباد.[4]

ومن خلال هذا العرض يمكن أن نقول إن الضعف والاستضعاف منه ما هو مذموم، ومنه ما هو غير ذلك. "فكل ذل يصيب الإنسان من غيره، وينالـه من ظاهره قريب شفاؤه، ويسير إزالته، فإذا نبع الذل من النفس، وانبثق من القلب فهو الداء الدوي، والموت الخفي.

ولذلك عمد الطغاة المستعبدون إلى أن يشربوا الناس الذل بالتعليم الذليل، والتأديب المهين، وتنشئة الناشئة عليه بوسائل شتى؛ ليميتوا الهمة، ويخمدوا الحمية، وإذا بيدهم العصا والزمام".[5]

"ولذلك يقول علماء الاجتماع إن أي شعب من الشعوب أو أمة من الأمم لا يمكن أن تستعبد أو تستذل إلا إذا كان في ذلك الشعب، أو تلك الأمة قابلية للاستعباد.[1]

---

[1]- سورة الأنفال، الآية: 26.

[2]- انظر: تأملات حركية في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، المهندس يوسف أبو راس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1422هـ-2001م، ص81.

[3]- سورة الشورى، الآية: 39.

[4]- مجموع الفتاوى (174/15) لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد العاصي وابنه محمد، الطبعة الأولى، 1398هـ.

[5]- المنطلق ص(55-56) محمد أحمد الرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1418هـ-1997م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلب الثاني: أنواع الضعف:

قد بين القرآن الكريم معاني الضعف، والاستضعاف، وفرق بينهما – وسأستعرض تلك المعاني مع بعض الوقفات.

1- الضعف كصفة خلقية:

قد جاء الضعف كصفة خلق الله عليها الإنسان وفطره، سواء كان هذا الضعف في هذه الأمة أو غيرها من الأمم يقول المولى عز وجل: (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً)[2].

يقول الإمام ابن كثير[3] رحمه الله: (يريد الله أن يخفف عنكم) أي: في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم.. (وخلق الإنسان ضعيفاً) فناسبه هذا التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته.[4]

إذاً فالضعف صفة يناسبها التخفيف ولذلك: قال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء حين مر عليه راجعاً من عند سدرة المنتهى فقال له: ماذا افترض عليكم؟ فقال: أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعاً، وأبصاراً، وقلوباً، فرجع فوضع عشراً، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً)[5][6].

ومما سبق يمكن أن استنتج:

أ- أن الضعف صفة ثابتة في جميع البشر.

ب- إثبات صفة الضعف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإقراره صلى الله عليه وسلم على كلام موسى عليه السلام يدل على ذلك.

---

[1]- انظر: ابن خلدون (551/1 وما بعدها) للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413هـ-1992م.

[2]- سورة النساء، الآية: 28.

[3]- ابن كثير هو: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، حافظ مؤرخ – فقيه ولد في قرية من أعمال بصرى بالشام وانتقل مع أبيه إلى دمشق سنة 706هـ، توفي سنة 774م، انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ((153/1)، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، والأعلام (32/1).

[4]- انظر: تفسير القرآن العظيم (417/1)، للغمام الحافظ: أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت 1417هـ-1996م.

[5]- المصدر السابق: (417/1).

[6]- رواه البخاري، كتاب الصلاة،حديث رقم (342).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ج- فقه التيسير، فالضعف لا بد له من تخفيف يناسبه فإن المولى عز وجل وضع عن الأمة الخمسين صلاة لعلمه سبحانه بضعفها عنها، وجعلها خمساً.

"وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب الثقلة رفرفة، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية.. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود: ويربت عليه في لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد. ما دام يذكر الله ولا ينساه ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها خطيئة"[1].

وقد جاء على لسان زكريا عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

وقال تعالى:﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[5].

وكل هذه الآيات دلت على صفة الضعف –كصفة خلقية- سواء كانت في البشر أو غيرهم.

قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[6] فقد أكدت هذه الآية ضعف الشيطان وكيده، وضعف أوليائه من الطواغيت.

2- الضعف أو الاستضعاف كصفة طارئة:

---

[1]- في ظلال القرآن، لسيد قطب، (1/476-477) دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية السابعة عشرة، 1412هـ-1992م.

[2]- سورة مريم، الآية: 4.

[3]- سورة لقمان، الآية: 14.

[4]- سورة البقرة، الآية: 166.

[5]- سورة العنكبوت، الآية: 41.

[6]- سورة النساء، الآية: 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قد يأتي الضعف أو الاستضعاف كصفة طارئة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]. "يحرض الله عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها"[2].

وهنا يبرز لنا أن الاستضعاف صفة طارئة تمر بالمجتمعات والأمم، ولكن لا بد أن تصحبها حالة نفسية داخلية ترفض الظلم وتأبى الذل: قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [3].

ولكنهم غلبوا على أمرهم فالإنسان "بفطرته نفور من الذل: آب على الحيف، ولكن تحيط بالناس أحوال، وتتوالى عليهم حادثات، فيراضون على الخنوع حيناً بعد حين، ويسكنون إلى الخضوع حالاً بعد حال، حتى يدربوا عليه، كما يتأنس السبع ويؤلف الوحش، ولكن يبقى في النفس ذرات من الكرامة، وفي الدماء شذرات من الجمر، فإذا دعا الداعي إلى العزة، وأذن بالحرية، وأيقظ الوجدان النائم، وحرك الشعور الهاجد، نبضت الكرامة في النفس، وبصت الجمرة في ا لرماد، وأفاقت في ا لإنسان إنسانيته، فأبى وجاهد ورأى كل ما يلاقي أهون من العبودية وأحسن من هذه البهيمية[4].

فكان الجهاد هو الوسيلة للخروج من ا لاستضعاف، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [5].

فقد أثبت لهم صفة الاستضعاف التي قد تكون في الظاهر لغلبة العدو أو كثرة عدده.

---

[1]- سورة العنكبوت، الآية: 41.

[2]- سورة النساء، الآية: 76.

[3]- سورة النساء، الآية: 75.

[4]- المنطلق، ص55.

[5]- سورة النساء، الآية: 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكن العزة تكون بالإيمان فلا يمتنع الضعيف عن قول الحق رغم ضعفه، وهذا ما يمكن أن نسميه استعلاء الإيمان" وله نماذج كثيرة في القرآن منها مؤمن آل فرعون، والسحرة، وحبيب النجار... وغيرهم.

وقد يجتمع ضعف الإيمان مع الضعف لغلبة عدو وغيره، فيكون الاستضعاف كاملاً وهذا هو المذموم –وسيأتي الحديث عنه- ولهذا ذكر سبحانه وتعالى في المستضعفين من قوم صالح صفة الإيمان، ولما كان عاقبة الإيمان التمكين بغض النظر عن قوة الكفار وغلبتهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

فعاقبة الاستضعاف، إن صحبه الإيمان، التمكين، ولكن لا بد من فقه يصاحب تلك المرحلة كفقه الدعوة إلى الله، واستنجت ذلك أن مرحلة الاستضعاف التي مر بها هارون عليه السلام عندما عبد بنو إسرائيل العجل، فقال سبحانه واصفاً تلك المرحلة: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[3].

فقد استضعف بنو إسرائيل هارون لكثرة عددهم، فحسبوه ضعيفاً لذلك، ففي هذه المرحلة يظهر فقه الدعوة إلى الله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[4].

وهذا مما يدل على أن هارون لم يألُ جهداً أن يبلغ دعوة الله، وينذر بني إسرائيل من المنكر الذي وقعوا فيه، مع مراعاة فقه الأولويات، ويبين حجته حين خاطبه موسى قائلاً: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾[5].

---

[1]- سورة الأعراف، الآية: 137.

[2]- سورة القصص، الآية: 5.

[3]- سورة الأعراف، الآية : 150.

[4]- سورة طه، الآية: 94.

[5]- سورة طه، الآية: 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فبين حجته أنه ما ترك مدافعتهم وتغيير المنكر باليد، أو اللحاق بموسى عليه السلام إلا لأنه خشي أموراً ليست في مصلحة الدعوة، منها:

أنه لو فعل ذلك لأدى إلى مفسدة أكبر وهي إما أن يقتلوه، أو أن يتفرق بنو إسرائيل فترك الإنكار لدر ء هذه المفاسد، فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾[2]. فقدم هارون عليه السلام مصلحة انتظار موسى وعدم تفريق بني إسرائيل على غيرها من ا لمصالح، مع قيامه واستمراره في الدعوة إلى الله لتغيير المنكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾[3].

أنه بلغ أقصى غاية في إنكار المنكر حتى إنهم كادوا يقتلونه دلالة على سعيه في الإنكار والتغيير.

3- الضعف المذموم:

هنالك ضعف نهى الله تعالى عنه، وعن التلبس به وهذا الضعف لا يتناسب مع المؤمنين الصادقين، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] من الوهن أي الضعف أي لا تضعفوا بسبب ما جرى لكم، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، أي العاقبة والنصر لكم أيها المؤمنون.[5]

وكان ذلك بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد فنهاهم الله عن الضعف الذي هو سبب الهزيمة الحقيقي، وكذلك على أمتنا اليوم أن تترك الضعف والخوف الذي حل بها، ودب فيها بعد هزيمتها أمام الغرب من يهود ونصارى.

---

[1]- سورة الأعراف، الآية: 150.

[2]- سورة طه، الآية: 94.

[3]- سورة طه، الآية: 90.

[4]- سورة آل عمران، الآية: 139.

[5]- تفسير القرآن العظيم (417/1).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإن: "من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير، فقدهم كل ثقة بأنفسهم، وهو أشد الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء"[1].

فالاستضعاف ظلم للنفس البرية لا يقبله الله تعالى. قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[2].

وهو ـكذلكـ سببٌ لخسارة الدنيا والآخرة، ولذلك لم يقبل الله سبحانه حجة المستضعفين، ومجادلتهم للكبراء حين قال سبحانه ذلك في أكثر من آية: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾[4]

وكانت نهاية هذه المجادلة هي الخلاف المبين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[5].

---

[1]- لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. ص/141. الأمير شكيب أ رسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ الطبعة، تحقيق: الشيخ/ حسن تميم.

[2]- سورة النساء، الآية: 97.

[3]- سورة إبراهيم، الآية: 21.

[4]- سورة سبأ، الآية: 31-32.

[5]- سورة غافر، الآية: 47-48.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا هو الاستضعاف الذي ذمه الله، وذم المتصفين به، وأمتنا اليوم قد تلبست بشيء من هذا الاستضعاف، ويمكن أن نقول إنه استضعاف جزئي فما زالت هناك مظاهر ومعالم لعزة الإسلام رغم بعد الناس حكاماً ومحكومين عن تعاليم هذا الدين.

فعندما: "انحسرت موجة المد الإسلامي العالية عن هذه الأرض وحينما استردت الجاهلية زمام القيادة، التي كان الإسلام قد انتزعها منها، وعندما عاد الشيطان ينفض غبار المعركة عن كاهله، وينهض من عثرته ويهتف لحزبه الذي عاد يتسلم الزمام.

عندما حدث هذا كله لم ترتد حياة البشرية تماماً إلى أوضاعها المتخلفة في الجاهلية الأولى. لقد كان الإسلام هناك –حتى وهو يتراجع عن مكان الصدارة في الأرض- وكانت هناك من ورائه خطوط عريضة، ومبادئ ضخمة، قد استقرت في حياة البشرية، وصارت مألوفة للناس، وزالت عنها الغرابة التي استقبلوها بها يوم جاءهم بها الإسلام أول مرة"[1]. وهذا مما يبعث الأمل في الجيل القادم بإذن الله.

[1]- هذا الدين، ص/79 سيد قطب، دار الشروق، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1402هـ-1982م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلب الثالث: عصور الاستضعاف:

من المعلوم أن جميع الحضارات التي سادت في الأمم قبل الإسلام، أخذت وقتاً طويلاً إلى أن سادت وبلغت درجة من الرقي والتقدم، ثم سرعان ما انهارت وهذه الحضارات هي: حضارة بابل، والحضارة الفرعونية، والآشورية، وغيرها من الحضارات، إلا أن الإسلام خلال مائة سنة ساد معظم العالم، وما زال في نمو وتقدم مطرد، وعندما دب إلى الأمة الضعف لم ينهر سريعاً، فإن منحنى الانحطاط والضعف لأمة الإسلام أخذ حوالي 800 سنة، والسر في ذلك أن حضارة الإسلام قامت على منهج فكري عظيم، وكانت القيادة في هذه الحضارة بيد العلماء الربانيين، فمتى ما قل العلماء في عصر من العصور كان ذلك مؤشراً على ضعف الأمة وانحطاطها.

وخلال هذه الحقبة من التاريخ، مرت الأمة بمراحل مختلفة من الضعف، استطاع عدد من العلماء أن يقودوا الأمة إلى بر الأمان بفقه عظيم.

ففي كل مرحلة من مراحل ضعف الأمة نجد فقهاً يناسب تلك المرحلة وذلك الواقع.

ويمكن أن نقسم مراحل الاستضعاف إلى ثلاث مراحل رئيسة، وهي أبرز مراحل الاستضعاف وليست كلها؛ لأن منحنى الضعف –كما ذكرنا- أخذ زمناً طويلاً، وسنأخذ نماذج لهذه المراحل الثلاث لنستنبط منها فقهاً يعين الأمة على النهوض من كبوتها، وهذه المراحل هي:

1- المرحلة المكية.
2- مرحلة العصر العباسي الثاني، ودخول التتار.
3- العصر الحديث.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: المرحلة المكية:

قد يرد تساؤل أو استدراك كيف تكون مرحلة الإسلام الأولى من مراحل الاستضعاف؟ وهي من الفترات الزاهرة بمجد الإسلام، ونحن مطالبون بدراستها والاستفادة منها؟ فأقول: نعم، إنها من أعظم مراحل الإسلام، لكن الله سبحانه وتعالى قد وصفها في كتابه العزيز بأنها مرحلة استضعاف، فقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

فأثبت الله سبحانه أن هذه المرحلة كانت مرحلة استضعاف، إلا أنه استضعاف من ناحية قلة العدد، وكثرة الأعداء، وليس استضعافاً في النفوس، أو خوراً في العزائم، أو ضعفاً في الإيمان، ولهذا وصف الله المسلمين بقوله: چ ب ب چ.

ولكي نستفيد من هذه المرحلة، كان لا بد من الوقوف عندها، واستخراج العظات والعبر منها، وأخذ الفقه الذي صاحبها، فقد كانت أبرز معالم الاستضعاف فيها هي: غلبة الكفار وسيطرتهم، كما هو حال أمتنا اليوم.

ولكن لا يمكن أن تنزل تلك المرحلة تنزيلاً كاملاً على واقعنا، ونقول إن المرحلة التي نمر بها هي مثل المرحلة المكية تماماً، فهناك اختلاف جوهري في جوانب كثيرة، رغم طغيان الجاهلية، ونموها في كلا المرحلتين، فالمرحلة المكية لها سماتها وخصائصها التي نستفيد منها، وألا نعتبر أننا اليوم في المرحلة المكية للإسلام، فذلك من التعميم الخاطئ فلا بد من النظر لكل مرحلة بكل جزئياتها، فمثلاً الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الإسلام أمر هو وأصحابه بالكف عن القتال. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2].

ذلك لحكمة يعلمها الله فلو قلنا إن المرحلة التي نعيش فيها هي نفس المرحلة المكية. فهل نكف عن مجاهدة أعدائنا؟!! وهذا ما يتمناه الكفار. ولذلك كان لابد أن نفهم السيرة فهماً دقيقاً "لأن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وما احتوته من أحكام الإسلام تطبق في وقتها المناسب على ضوء هديه صلى الله عليه وسلم، ووقتها المناسب كل وقت غابت فيه دولة الإسلام، أو عاد الإسلام غريباً.[3]

---

[1]- سورة الأنفال، الآية: 26.

[2]- سورة النساء، الآية: 77.

[3]- الطريق إلى جماعة المسلمين، ص140، الطبعة الثامنة، 1418هـ-1997م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهم سمات المرحلة المكية

كان من أهم سمات هذه المرحلة:

أ- الإيمان العميق، والفهم الدقيق، والعمل المتواصل، فقد كان الإيمان هو الأساس المتين لهذه المرحلة، إيمان يتبعه عمل فليس الأمر قضية قناعة فكرية باردة، وليس الأمر قضية دفعة عاطفية خاوية من القناعة العقلية بل هو الالتحام الكامل"[1] بين الإيمان كعقيدة وسلوك، والعمل كدعوة وجهاد، فمتى وجد الإيمان بهذا الدين، وجدت معه أقوى ضماناته، والمسلمون يتعلمون من دينهم أن مقومات وجودهم وانتصارهم، والتمكين لهم، تقوم كلها على الوفاء بهذه التوجيهات"[2].

وقد صحب الإيمان في هذه المرحلة الفهم الدقيق بجوانب المرحلة المختلفة فلم "نسمع في هذه المرحلة عن أي صدام وقع بين هذا المجتمع الإسلامي الناشئ وبين المجتمع الجاهلي، فالفكرة غير معلنة إلا لمن يرجى انضمامه لهذا التجمع الإسلامي القائم".

فكان العمل المتواصل الذي أثمر النواة الأولى، والقواعد الصلبة لقيادات الإسلام "هذه النواة التي حملت فيما بعد عبء الدعوة للإسلام في الأرض، وحملت عبء المواجهة الكبرى مع أعداء هذا الدين".[3]

ب- الثبات:

إن البنيان الشامخ الذري لا يرتكز على سطح الأرض إنما يرتكز على دعائم غائرة في الثرى، وهي التي تتحمل ثقله، وترفع عمده. وقد كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بصلابة يقينهم وروعة استمساكهم – دعائم رسالته، وأصول امتدادها من بعد في المشارق والمغارب.[4]

فبثباتهم وتضحياتهم ودمائهم الزكية التي أضاءت الطريق للسالكين كانوا هم وقود ذلك التغيير؛ لأن الدعوات تحسب في حسابها دائماً أن الجيل الأول يذهب وقوداً للتغيير، وأن كل كلمة حية قد اقتاتت قلب رجل حي فعاشت بين الأحياء، والأحياء لا يتبنون الأموات.[5]

فكان الثبات رغم شدة الابتلاء والإيذاء، فقد استخدمت قريش جميع أساليب الإيذاء والتعذيب النفسية والجسدية، ومع ذلك لم يرتد أحد عن دينه من هؤلاء عندما

---

[1]- المنهج الحركي للسيرة، ص31، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

[2]- هذا الدين ص22، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابعة، 1402هـ_ 1982م.

[3]- المنهج الحركي للسيرة، ص(30-31).

[4]- فقه السيرة، محمد الغزالي، ص106، طبع على نفقة أمير دولة قطر، بيروت، دار النشر، بدون تاريخ.

[5]- الشيخ عبد الله عزام، شريط كاسيت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقعت المحنة وابتدأت المواجهة. "وفشلت قريش إذ لم يزد الإرهاب والتعذيب أولئك المعذبين إلا إصراراً على مواصلة الطريق: وإن كان في المواصلة الموت الزعاف.[1]

فثبات عمار[2] وخباب[3] وبلال[4] وصهيب[5] وجمع غفير من ا لصحابة رضوان الله عليهم، كان سمة تلك الرحلة، وهي لا بد أن تكون سمة لهذه المرحلة التي نعيشها فإن دعاة الإسلام اليوم، محاصرون مطاردون مضطهدون، متهمون، وإن لم يكونوا في شعب من الشعاب،.. محاصرون وإن كانوا يجدون ما يأكلون ويشربون.. محاصرون تقيدهم إمكاناتهم الضئيلة البسيطة عن الانطلاق إلى الأهداف الكبيرة العظيمة الجليلة التي استوحوها من كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.[6]

ولكن رغم ذلك فإن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء للسائرين.

ثانيا : مرحلة العصر العباسي:

كانت فترة العصر العباسي 132- 656هـ من الفترات التي عاش فيها المجتمع الإسلامي سعادة ورخاء ، فقد توسعت الدولة، وانتشر العلم، وكثر العمران إلا أن مؤشر الضعف بدأ يظهر في الأمة منذ بدايات القرن الخامس ،وقد اعتبرت هذه المرحلة من مراحل الضعف في الأمة لما كان فيها من مظاهر الضعف في عدد كبير من الجوانب، وانتهى ذلك بتسلط أعداء الأمة على الخلافة الإسلامية التي هي رمز وحدة المسلمين، ومن أبرز هذه الجوانب :

---

[1]- تأملات حركية في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، المهندس يوسف أبو راس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، 1422هـ-2001م، ص81.

[2]- عمار بن ياسر بن عامر بن مالك المنحجي من السابقين الأولين للإسلام، شهد بدراً وأحداً وغيرها من المشاهد، كان من أوائل الذين أوذوا في سبيل الله، وكانت أمه أول شهيدة في الإسلام، توفي في خلافة سيدنا علي بن أبي طالب سنة 37هـ. انظر: أسد الغابة (626/3)، والأعلام (36/5).

[3]- خباب بن الأرث: اختلف في نسبه قيل خزاعي، وقيل تميمي، هو: خباب بن الأرث بن جندلة يكنى أبا عبد الله، من السابقين الأولين في الإسلام، مات سنة 37هـ، ولم يشهد صفين. انظر: أسد الغابة (591/1) وسير أعلام النبلاء (323/2).

[4]- بلال بن رباح يكنى أبا عبد الكريم وقيل: أبا عبد الله شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان من السابقين الأولين في الإسلام، توفي بدمشق سنة 20هـ. انظر: أسد الغابة (243/1) وسير أعلام النبلاء (347/1).

[5]- صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو الربعي النمري، أصله عربي لكنه وقع أسيراً عند الروم ولذلك سمي صهيب الرومي، كان من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي بالمدينة سنة 38هـ. انظر سير أعلم النبلاء (17/2).

[6]- تأملات حركية في السيرة، ص103.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كثرة الزعامات التي وجدت والتي تتناحر فيما بينها ...ومع كثرة اصحاب النفوذ وتناحرهم، ومع امتداد سلطة أحدهم على الآخر زادت الاقطاعيات وزاد الترف وزاد التفاخر في الأملاك الأمر الذي زاد معه الفساد، ووقعت المخالفات .[1]

ولهذا الضعف في تلك الفترة طمع أعداء الأمة فيها فجاء الصليبيون من الغرب وأحرزوا بعض النصر، وجاء المغول من الشرق وأسقطوا الدولة العباسية ، غير أن المنهج الإسلامي ما زال يطبق ، ولاتزال للإسلام قوة وإن بدأ الخط البياني للضعف ينحدر .

معالم الاستضعاف في هذه المرحلة:

أ) الفرقة والخلاف، وضياع هيبة الدولة ،فقد تفرقت الدولة وتناحر الإخوة فيما بينهم، واستولت كل مجموعة على مصر من الأمصار، فالدولة الأموية في الأندلس، والمماليك في مصر، والدولة البويهية والحمدانية في الشام، والنزاع بين الأخوة في خراسان. وكل ذلك أدى لضياع هيبة الدولة والخلافة في بغداد، فلم يبق للخليفة العباسي في بغداد إلا اسم الخليفة"[(2)].

ب) الانغماس في الترف الذي أضعف الحمية والعصبية التي تقود للجهاد والدفاع عن الملك، فبمقدار ما حصل من الرياش، والترف، وما يدعو إليه من توابع ذلك فذهب بخشونة البداوة، وأضعف العصبية والبسالة، ونشأ الأبناء على مثل هذا الترف والنعيم، واستنكفوا عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم حتى صار ذلك خلقاً لهم وسجية.. وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء... وإذا انقرضت العصبية والبسالة قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة بحقوقه والتهمتهم الأمم"[(3)].

ج) تسلط الأعداء وغلبتهم:

كان من أبرز سمات هذا العصر تسلط الأعداء على أراضي المسلمين، واستباحة حرمتهم، فالصليبيون من الغرب، والتتار من الشرق، وبلغ ذلك الضعف مداه بدخول التتار بغداد عاصمة الخلافة.

يقول ابن الأثير واصفاً لذلك: "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل

[1] التاريخ الإسلامي، محمود محمد شاكر ،(9/ 16).

[2]- انظر: الكامل في التاريخ للإمام أبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري. (247/9) وما بعدها، دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ طبعة.

[3]- انظر: تاريخ ابن خلدون (149/1).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً"[(1)].

ثالثا: العصر الحديث:

وإذا ما تحدثنا عن مظاهر الضعف في العصر الحديث، فإننا سنجد أن هذا العصر قد جمع مظاهر الاستضعاف في العصور التي قبله، ونحن حينما نقول ذلك لا ننفي الخيرية عن هذه الأمة، فالخيرية فيها إلى قيام الساعة، قال تعالى: چ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ چ[(2)] بيد أن المستقرئ للواقع يجدها قد جمعت مظاهر الضعف في العصور التي قبلها، فنجد تسلط الأعداء عليها، وغلبتهم لها، واستباحتهم لحرماتها، والفرقة التي يعيشها أبناؤها ناهيك عن الخيانة من بعضهم، والترف الذي نشأت فيه أجيال من المسلمين، وكثرة الزعامات التي لا تقدم ولا تؤخر، فأكثر من مائة زعامة إسلامية لم تستطع أن تقول: لا لأعدائها والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فكان لا بد من معرفة الفقيهات في مراحل الاستضعاف السابقة. وهذا ما سأتناوله في المبحث التالي .

المبحث الثالث

مراعاة المصالح العامة للشريعة الإسلامية

المطلب الأول: المصلحة في الشريعة الإسلامية

إن الفقه الإسلامي في جملته قائم على أساس اعتبار مصالح الناس، فكل ما هو مصلحة مطلوب وجاءت الأدلة بطلبه، وكل ما هو مضرة منهي عنه تضافرت الأدلة على منعه، وهذا أصل مقرر مجمع عليه لدى فقهاء المسلمين[(3)].

وأود أن أقف على المعنى العام للمصلحة في الشريعة بغض النظر عن تفريعات الأصوليين لمعنى المصلحة، وهل هي معتبرة أم لا؟

والخلاف الذي دار بينهم في ذلك؟

فإن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها وأنها ترجح خير الخيرين، وشر الشرين، وتعمل على تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما[(4)].

---

[1]- الكامل في التاريخ (329/9).

[2]- سورة آل عمران، الآية: 110.

[3]) أنظر أثر الأدلة المختلف فيها (28/2)

[4]) أنظر: مجموع الفتاوي (48/20)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولذلك اتجهت إلى اعتبار المصلحة، والحديث عن كيفية مراعاتها فإن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وإن درء المفاسد فأفسدها محمود حسن، وإن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن وإن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن واتفق الحكماء على ذلك[1].

ولحاجتنا لهذا الفقه في زمن كثرت فيه المفاسد، واختلط الشر بالخير فلا تكاد تجد خيراً محضاً خالصاً.

فكل مصلحة أو خير تجده مشوباً بشيء من الشر، ويذكرني ذلك حديث الرسول الكريم "صلى الله عليه وسلم" لحذيفة حينما سأله: (هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم ولكن فيه دخن) [2].

فالخير في زمننا لا يخل من شر، أو دخن كمال قال "صلى الله عليه وسلم"

فحتم علينا التميز بين المصلحة والمفسدة، لأنه فقه عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف مالا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكمة، فهي حكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل وإلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل[3].

إذا فالمصلحة هي ما أقره الشرع من المنافع ولو لم يستحسنه العقل، كما قال الإمام الشاطبي رحمه الله: " إن المراد بالمصلحة عندنا ما فهم رعايته في حق الخلق من جلب المصالح ودرء المفاسد على وجه لا يستقل العقل بدركه على حال، فإذا لم يشهد الشرع باعتبار ذلك المعنى، بل يرده كان مردوداً باتفاق المسلمين[4].

والإمام عز الدين بن عبد السلام يعرف المصلحة بأنها الخير، والمفسدة بالشر، فيقول: ويعبر عن المصالح والمفاسد بالخير والشر والنفع والضر، والحسنات والسيئات، لأن المصالح كلها خيور نافعات حسنات، والمفاسد بأسرها شرور مضرات سيئات، وقد غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح[5].

ومن خلال هذه التعريفات نجد أن معظم العلماء عرف المصالح بأنها الحسنات أو المنافع. لكن عندما ننظر إلى جميع المصالح ونجدها مشوبة ببعض المفاسد

---

[1]) قواعد الأحكام في مصالح الأمام (1-6-7) للإمام المحدث أبي العز، بن عبد السلام السلمي، مؤسسة الريان – دمشق ، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.

[2]) رواه البخاري (1319/3) ، كتاب / المناقب – باب علامات النبوة في الإسلام ، حديث رقم (3411)

[3]) إعلام الموقعين (5/3)

[4]) الاعتصام، للشاطبي ، ص/396 ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م ، تحقيق: محمود طعمه الحلبي.

[5]) قواعد الأحكام (6/1).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالمصالح على هذا إما أن تكون مصالح خالصة غير مشوبة بمفسده، أو مصالح قد يشوبها بعض المفاسد، فعلى هذا صار تقسيم المصلحة على قسمين:

1. مصالح أخروية.
2. مصالح دنيوية.

فالمصالح الأخروية مصالح محضة لا مفسدة فيها، ومفاسد محضة لا مصالح معها.
فأعظم المصالح الأخروية التي يسعى لها من فتح الله بصره وبصيرته، وهداه سبل الهدى، هي الجنة يقول سبحانه وتعالى في أهلها:(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)[1].
فالجنة التي وعد الله عباده المتقين هي أعظم المصالح التي لا مفسدة معها، فقد جاء فيمن دخلها :(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)[2].
وأما النار – والعياذ بالله – فهي مفسدة محضة لا مصلحة معها أعدها الله لمن كذب رسله وعصى أمره.
إذن الدار الآخرة أعدها الله إما للمصالح الخالصة أو المفاسد الخالصة فإما جنة أو نار، أو سعادة وشقاء.
وأما المصالح الدنيوية – من حيث هي موجودة – لا يتخلص كونها هي مصالح محضة، وأعنى بالمصالح ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان وتمام عيشه ونيله ما تقتضيه أوصافه الشهوانية والعقلية على الإطلاق، حتى يكون منعماً على الإطلاق، وهذا في مجرد الاعتبار لا يكون، لأن تلك المصالح مشوبة بتكليف ومشاق قلت أو كثرت تقترن بها، أو تسبقها، أو تلحقها كالأكل والشرب واللبس[3].
فرغم هذه المفاسد التي تلحق المصالح فإن مقصود الشارع تحصيل تلك المصالح والمنافع فكانت الأحكام تدور مع المصلحة المعتبرة شرعا.

المطلب الثاني: شروط المصالح وأقسامها:

وجدنا بالاستقراء أن الشارع قاصد لمصالح العبادة، والأحكام العادية تدور معها حيث دارت فترى الشيء الواحد يمنع في حالة لا تكون فيه مصلحة فإذا كانت فيه مصلحة جاز كالدهر بالدهر إلى أجل يمتنع فيه بالمبايعة، ويجوز فيه القرض،

[1]) سورة الحجر الآية 48.

[2]) سورة ق الآية 35.

[3]) الموافقات (20/2).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبيع الرطب باليابس يمنع حيث يكون مجرد غرر وربا من غير مصلحة، ويجوز إذا كان فيه مصلحة راجحة[1].

إذا فالحكمة دائرة مع المصلحة أينما دارت ولا يتسنى معرفة المصلحة إلا بقواعد تضبط ذلك، فكان من هذه الضوابط الأعراف والعوائد المعتبرة، فلما قطعنا بأن الشارع جاء باعتبار المصالح، لزم القطع بأنه لابد من اعتباره العوائد، لأنه إذا كان التشريع على وازن واحد دل على جريان المصالح على ذلك، لأن أصل التشريع سبب المصالح والتشريع.. وأن العوائد لو لم تعتبر لأدى إلى تكليف مالا يطاق، وهو غير جائز أو غير واقع[2].

وأرجع لأقول بعد معرفة هذه القاعدة العظيمة إن المصالح الأخروية وأسبابها ومفاسدها لا تعرف إلا بالشرع، فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح، وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات، والتجارب والعادات، والظنون المعتبرة فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته[3].

وعلى ذلك كانت المصالح على ثلاثة أقسام:

1. مصالح المباحات.
2. مصالح المندوبات.
3. مصالح الواجبات.

والمفاسد على قسمين:

1. مفاسد المكروهات.
2. مفاسد المحرمات.

وعلى هذا فقد دارت المصلحة والمفسدة على (أقسام الحكم الشرعي التكليفي وهي: الواجب - المندوب – المكروه - الحرام) [4].

لكن عند التعارض بين ذلك فالأمر هين" إما أن يكون التعارض بين حسنتين لا يمكن الجمع بينه فتقدم أحسنهما بالتفويت المرجوح، وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منها فيدفع أسوأهما لاحتمال أدناهما. وأما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما،

---

[1]) الموافقات (22/2)

[2]) المصدر السابق (219/2)

[3]) قواعد الأحكام (10/1)

[4]) أنظر: أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص/15 ، وشرح الورقات ، ص/32 وما بعدها ، عبد الله بن صالح الفوزان ، الطبعة الثالثة، 1416هـ - 1996م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة، وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة، فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة[1].

فمثال الأول وهو التعارض بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما كالواجب والمستحب، التطوع ومثال الثاني كتقديم نفقة الأهل والوالدين على نفقة الجهاد الذي لم يتعين كما جاء في الحديث:(أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها قلت: ثم أي قال: بر الوالدين، قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله) [2].

وكذلك مثل تقديم الجهاد على الحج بشرط أن يكون الجهاد متعينا والحج كذلك، فهو من باب تقديم متعين على متعين.

ومثال الثالث كتقديم المرأة المهاجرة لسفر الهجرة بلا محرم على إبقائها بدار الحرب[3].

وهكذا يقدم الفرض على الواجب، والواجب على السنة المؤكدة، والسنة المؤكدة على المستحب[4].

ومن أمثلة ذلك ما تعارضت فيه المصلحة مع المفسدة المشاركة في برلمانات الدول التي لا تحكم بالإسلام.

فإن في الدخول فيها تقليل للمفاسد، وإن كان ذلك يشوبه من الضرر أنه في بعض المسائل لا يقدرون على تغييرها، فتقليل المنكر وتحجيمه خير من تركه ينتشر بين الناس.. ومن الأمثلة التي نعيشها اليوم هل يمكن المشاركة في إعلام فساد لا يخلو من إباحية وتحرر، لتقديم الدعوة والإرشاد للناس من خلاله أم نتركه بالكلية؟

فالمشاركة قد يشوبها كثير من المفاسد لكن الترك مفسدته أعظم، فكان لابد من مراغمة الباطل وتبين الحق حتى ولو من هذه المنابر التي يكثر فيها الفساد.

فالمشاركة قد يشوبها كثير من المفاسد لكن الترك مفسدته أعظم، فكان لابد من مراغمة الباطل وتبين الحق حتى ولو من هذه المنابر التي يكثر فيها الفساد.

وكل هذه المصالح لابد فيها من ضوابط للمصلحة، وهي:

1. اندراجها في مقاصد الشرع.
2. عدم معارضتها للكتاب.
3. عدم معارضتها للسنة.
4. عدم معارضتها للقياس الصحيح.

---

[1]) مجموع الفتاوي (50/20)

[2]) رواه البخاري (197/1) كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل الصلاة في لوقتها ، حديث رقم (504)

[3]) أنظر: مجموع الفتاوي (51/20)

[4]) أنظر: الدعوة قواعد وأصول، ص/91 ، جمعة آمين ، دار الدعوة ، القاهرة: الطبعة الرابعة، 1419هـ - 1999م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5. عدم تفويتها لمصلحة أهم منها.

مراعاة السلف للمصلحة:

لقد أولى السلف جانب المصلحة جانبا مهما في حياتهم، فقد قاموا بأمور رأوا أن المصلحة في فعلها راجحة على تركها، فمن هذه الأمور على سبيل المثال لا الحصر أن أصحاب رسول الله اتفقوا على جمع المصحف وليس هناك نص على جمعه وكتبه أيضاً بل قد قال بعضهم كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله "صلى الله عليه وسلم"؟ فروي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه بعد مقتل أهل اليمامة وإذا عنده عمر رضي الله عنه قال: أبوبكر إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحر بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قال فقلت له: كيف أفعل شيئاً لم يفعله "رسول الله صلى الله عليه وسلم" فقال: لي: هو – والله - خير.

فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شر ح الله صدري له، ورأيت فيه الذي رأى عمر.. ولم يرد نص النبي "صلى الله عليه وسلم" بما صنعوا من ذلك، ولكنهم رأوه مصلحة تناسب تصرفات الشرع قطعاً، فإن ذلك راجع إلى حفظ الشريعة، والأمر بحفظها معلوم، وإلى منع الذريعة للاختلاف في أصلها وهو القرآن، وقد علم النهي عن الاختلاف في ذلك.

ومن الأمور الدالة على ذلك أيضاً اتفاق الصحابة رضوان الله عليهم على حد شارب الخمر ثمانين، ومستندهم في ذلك الرجوع للمصلحة والتمسك بالاستدلال المرسل، قال العلماء لم يكن فيه على عهد رسول الله "صلى الله عليه وسلم" حد مقرر، إنما جرى الزجر فيه مجرى التعزير. ومن الأمثلة الدالة على أخذ الصحابة بالمصلحة في مسألة تضمين الصناع فقد قضى الخلفاء الراشدون بتضمين الصناع.

قال علي: رضي الله عنه: لا يصلح الناس إلا ذاك ، ووجه ذلك المصلحة لأن الناس لهم حاجة إلى الصناع[1].

ولأن المصلحة تحقق مقصد الشريعة العام، وتعمل لفهم الواقع واستيعاب النصوص لذلك قال الإمام مالك: "إن الاستحسان تسعة أعشار العلم"[2].

فهي مما يساعد العاملين للإسلام والعلماء على قيادة الأمة في زمان كثر فيه الفساد وقل الخير، وهذا القليل مشوب بكثير من المفاسد، فكان لابد من فهم كل ذلك وإدخال المصلحة في كل ذلك وبهذا نكون قد حافظنا على المقاصد العامة للشريعة الإسلامية.

---

[1]) أنظر: الاعتصام ص 398 - 401

[2]) الاعتصام ص 416

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهم النتائج والتوصيات:

1- إن لمراحل الاستضعاف في حياة الأمة فقهاً يناسبها.
2- شمول الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان.
3- الشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق المصالح ودرء المفاسد
4- إن الضعف البشري يناسبه التخفيف والتيسير.
5- إنه يمكن للأمة أن تخرج من مرحلة الاستضعاف والضعف التي تعيشها إذا أخذت بفقه هذه المرحلة وعملت على تطبيقه في واقعها العملي.
6- إن للعلماء دوراً كبيراً في نهضة الأمة لما لهم من مكانة عند الأمة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
[1] الأعلام لخير الدين الزركلي – دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1984م.
[2] إحياء علوم الدين (45/1،44)، للإمام أبي حمد محمد بن محمد الغزالي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م، بدون رقم الطبعة.
[3] إرشاد الفحول، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ولا رقم للطبعة.
[4] أصول الفقه الإسلامي، د. حسن محمد مقبول الأهدل.، مكتبة الجيل، صنعاء، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991م، ص10
[5] إبطال الحيل، للإمام أبي عبد الله بن محمد العكبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ-1996م.
[6] البحر المحيط في أصول الفقه للإمام بدر الدين بن عبد الله الزركشي، تحقيق د. محمد بن معد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م.
[7] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ((153/1)، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان .
[8] ترتيب المدارك، (102/1) للقاضي عياض، تحقيق أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ أو رقم الطبعة،
[9] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص242 لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.
[10] تقريب التهذيب للإمام الحافظ: أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ-1997م.
[11] تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ: أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت 1417هـ-1996م.
[12] تأملات حركية في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، المهندس يوسف أبو راس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1422هـ-2001م،
[13] الدعوة قواعد وأصول ، جمعة آمين ، دار الدعوة ، القاهرة: الطبعة الرابعة، 1419هـ - 1999م)
[14] طبقات الفقهاء، لأبي إسحاق الشيرازي، متوفى 476هـ تصحيح ومراجعة الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت – لبنان، دون تاريخ ولا طبعة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[15] دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة "صلى الله عليه وسلم" لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى (1405هـ - 1985م) تحقيق د. عبد المعطي قلمجي.
[16] سير أعلام النبلاء الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط9، 1414هـ-1993م،
[17] شرح الورقات، عبد الله بن صالح الفوزان ، الطبعة الثالثة، 1416هـ - 1996م.
[18] شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية الشيخ: محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون رقم وتاريخ الطبعة.
[19] شذرات الذهب في أخبار من ذهب،عبدا لحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ولا رقم للطبعة.
[20] صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، 1410هـ-1990م.
[21] صحيح الترمذي – مع شرحه عارضة الأحوذي للإمام ابن العربي المالكي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ-1990م.
[22] طبقات الفقهاء للشيرازي.
[23] الطريق إلى جماعة المسلمين، الطبعة الثامنة، 1418هـ-1997م.
[24] فتح الباري: لابن حجر العسقلاني دار الحديث، القاهرة، ط1، 1419هـ-1998م، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
[25] فقه السيرة، محمد الغزالي،، طبع على نفقة أمير دولة قطر، بيروت، دار النشر، بدون تاريخ.
[26] في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية السابعة عشرة، 1412هـ-1992م.
[27] القاموس المحيط، ص756، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ-2001م.
[28] قواعد الأحكام في مصالح الأمام للإمام المحدث أبي العز، بن عبد السلام السلمي، مؤسسة الريان – دمشق ، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.
[29] الكامل في التاريخ للإمام أبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري. وما بعدها، دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ طبعة.
[30] لسان العرب، لابن منظور،، مكتبة الرشد، الرياض، ط3، 1414هـ-1994م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[31] لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. الأمير شكيب أ رسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ الطبعة، تحقيق: الشيخ/ حسن تميم.
[32] الاجتهاد في الإسلام، تأليف نادية شريف العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان الطبعة الثالثة (1406هـ –1986م)
[33] الاعتصام، للشاطبي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م ، تحقيق: محمود طعمه الحلبي.
[34] مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة ا لمنار، بدون طبعة ولا تاريخ، ص509.
[35] مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا، دار النشر والتزيع الإسلامية، القاهرة، طبعة 1420هـ-1992م، بدون رقم.
[36] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد العاصي وابنه محمد، الطبعة الأولى، 1398هـ.
[37] مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413هـ-1992م.
[38] المنطلق محمد أحمد الرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة عشر، 1418هـ-1997م.
[39] المنهج الحركي للسيرة، ص31، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.
[40] نثر الورود على مرافئ السعود الشيخ: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي صاحب أضواء البيان، تحقيق: محمد ولد سيدي حبيبن دار النشر والتوزيعع، السعودية جدة، الطبعة الثانية، 1420هـ-1999م.
[41] نقص الاجتهاد ، د. أحمد بن محمد العنفري ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.
[42] وفيات الاعيان (37/2) وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عياش، دار صادرن بيروت.
[43] الوجيز في أصول الفقه، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، 1417هـ-1997م..
[44] هذا الدين سيد قطب، دار الشروق، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1402هـ-1982م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com